استئناف التنقيبات عن مرحلة ماقبل التاريخ في تل الشيخ حسن حملة استكشافية

دانييل ستوردور

تعريب: غادة الحسين

استأنفت البعثة الفرنسية في الكوم - المريبط، بإشراف د.جاك كوفان في أيلول ١٩٩٣ حملتها للتعرف على الامكانيات الجديدة التي قد يوفرها تل الشيخ حسن، وذلك بعد سلسلة متتالية من التنقيبات قام بها فريق ألماني باشراف د. ج . بوزه. وقد فوضت المديرية العامة للآثار السورية الدكتور جاك كوفان بالعمل في هذا الموقع، حيث أجرى في عام ١٩٧٦ سلسلة من الأسبار كشفت عن استيطان هام خلال المرحلة التي سبقت ظهور الفخار والتي غطت معظم فترة استيطان عصرأوروك ومابعد عصر أوروكو . ولهذا فقد أناب د. جاك كوفان جامعة ساربروكن للتنقيب عن الإستيطان الأحدث في هذا الموقع لكي يتم الوصول بمساحة كافية الى مستويات ماقبل التاريخ .

لقد تم بلوغ هذا الهدف في عام ١٩٩٢ نتيجة للتنقيب المكثف في سويات عصر أوروك، حيث ظهرت تحتها مباشرة سويات ماقبل التاريخ. قررنا بالاتفاق مع د. بوزه و ج. كوفان منذ عام ١٩٩٣ أن تتم محاولة لتحديد الإمكانيات الدقيقة التي مازال الموقع يقدمها، وذلك بإجراء اختبار على سعة الطبقات المتوفرة لماقبل التاريخ، وعن حالة حفظها وانتمائها الزمني- الثقافي في آن معاً.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

جرى موسم التنقيب مع فريق مؤلف من ١٤ شخصاً.[١] ونظراً لأن مستوى البحيرة مرتفع جداً فقد تحول الموقع الذي كان على ضفتها الشرقية الى جزيرة . لذا كان فريق العمل يصل اليه يومياً بالقارب.

دراسة الطبقات الأثرية أو التوضعات الطبقية

لقد أثبت جاك كوفان منذ عام ١٩٧٦ أن تل الشيخ حسن يحتوي على سويات محفوظة جيداً تعود لنهاية العصرالنيوليتي ماقبل الفخار أ، وعلى الأرجح لبداية العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب، مما أعطى للموقع أهمية استثنائية ، فلم يتم التعرف على مراحله بتتابعها المباشر، إلا في الموقع المغمور من المريبط، الذي يبعد ١٥ كم ، ويقع في أسفل تل الشيخ حسن (صورة ١).

لم تكشف حملتنا لعام ١٩٩٣ عن سويات أفقية تعود للعصر النيوليتي ماقبل الفخار أ موازية لتلك التي تم العثور عليها في عام ١٩٧٦من مرحلة المريبط ٣ ب، بل على العكس فإن مجمل الطبقات التي تم الكشف عنها تنتمي إلى النيوليتي ما قبل الفخار ب والتي يحتويها موقع مريبط في سويته الرابعة.

إن الأسبار التي تم إنجازها في عام ١٩٧٦ في محيط الجهة الشمالية الغربية من التل المشار إليها (باللون الأسود في الصورة ٢)

، كما يمكن أن نراها من خلال دراستنا للمخطط رقم ٢، هي حالياً مغمورة تماماً وبعيدة عن محيط التل بمسافة لاتقل عن ٢٠ م . أما المربعات التي فتحناها، فإنها تقع بالمقابل في وسط التل أو في جهته الشمالية.

ونتيجة لذلك أصبحنا أمام احتمالين بالنسبة للتوضع الطبقي في المناطق التي مازالت قابلة للتنقيب انطلاقاً من فحص المخطط الوارد في الصورة رقم ٣.

- إما أن دراسة طبقات النيوليتي ماقبل الفخار ب بالتحديد تشير الى استيطان أفقي للعصر النيوليتي ماقبل الفخار أ في الأطراف الغربية للتل والتي اختفت حالياً.
- أو أن تتابع العصر النيوليتي ماقبل الفخار أ ونهاية النيوليتي ماقبل الفخار ب، سواء رافقته فترة انتقالية أم لا، كان يغطي التل بأكمله.
- بالقياس لطبقات العصر النيوليتي ماقبل الفخار أ، التي اكتشفت في عام ١٩٧٦ على عمق ٩٫٥٠ م. فإن أقل من متر من الطمي يفصلنا عن هذه السويات ، هذا إذا ما تأكدت صحة الاحتمال الثاني.

لقد فقد التل سوياته التاريخية الأكثر حداثة، نتيجة للأعمال التي أجراها بناؤوا عصر أوروك. في الواقع، لقد لاحظنا في الجزء الأوسط من التل، أن تماس المنشآت الأولى التاريخية أصبح على عمق ٦٠٫٧ م من السطح. ولايمكن لهذا الانتظام المضاف الى الشكل العادي والمزيل تماماً لأولى سويات العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب إلا أن نعزوه الى نشاط بشري.

عمارة ومدافن

لقد تم العثور في المربعات فريكه و سوفرس (صورة ٢) والتي نقب فيها على التوالي كل من فريدريك أبس و أ. يني، على شواهد معمارية محفوظة بشكل جيد.

مربع «سوفرس»

لقد أتاح التنقيب الذي تم في الاثني عشر متراً مربعاً بالتعرف على منزل مستطيل الشكل جدرانه من الآجر، قاعدته من الحصى الكبيرة، أرضيته من الحصى والرمل والطين (شكل ٤). يعود المدفن المقام في أرض هذه الغرفة الى فترة لاحقة للبناء مباشرة. وكما وتوجد عدة حفر للدفن من الحصى في المساحات الخارجية.

مربع «فريكه»

لقد أتاحت الخمسة والعشرون متراً مربعاً المنقبة في تلك المنطقة الكشف عن منزلين مستطيلين كبيرين متتاليين بجدران مستقيمة تفصل بين المنزلين، محددة بذلك غرف ذات أحجام كبيرة نوعاً ما (شكل ٥). لقد بُني المنزل الأحدث شمال المنزل الأقدم، وذلك على المساحة الخارجية التي تحده. يستند الجدار الخارجي (س) للمنزل الجديد على أنقاض الجدار الخارجي (ن) للمنزل القديم. ولم يُكشف سوى عن أرضية المسكن الأكثر حداثة . يظهر تحت البلاطات الحجرية في إحدى الغرف مدفن لشخصين. وتحتوي المساحة الخارجية على موقد كبير مستدير، وعلى مواد صوانية كثيرة وعلى رحى مكسورة في مكانها وبعض عظام حيوانات. كذلك فقد حفر مخبأ في الأرض احتوى على تسعة رؤوس سهام، وتتألف المنقولات الصوانية من أدوات وأسلحة بشكل خاص، إضافة الى شظايا تشذيب ونوى مستعملة سابقاً.

أما في باقي مناطق الحفريات فقد تكونت البقايا المعمارية بشكل أساسي من حفُر دفن، التي تذكر بتقاليد حُفر الحصى في مريبط، التي نجدها حتى في الأناضول (موقع جفرهويوك) في فترة النيوليتي ماقبل الفخار ب الوسيط .

بشكل إجمالي، تم العثور على سبعة مدافن، اثنان منها كانت مزدوجة، وحتى الآن لم يتمكن جون انفرونس ، المكلف بالتنقيب عنها ودراستها ، إلا بالتنقيب في اثنين منها . فقد تم الحفاظ على الباقي، ويمكننا أن نستنتج حالياً أن كل أعمال الدفن قد تمت داخل المساكن. ومن المرجح أن الطقوس المأتمية كانت متنوعة فمنها المقابر الفردية أو الثنائية، الأولية والثانوية والكاملة، والتي لاتحتوي إلا على جمجمة مفصولة عن الجسد.

الأدوات:

لقد تم تصنيف حوالي ٩٠٠ أداة وبقايا تشذيب الأدوات الصوانية، إضافة الى أدوات الطحن (مساحن ومدقات) بشكل منتظم. ولم يتم العثور على أية قطعة فنية، لقد شذبت الأدوات الصوانية (شكل ٦)، وهي غالباً ماتكون مقطعة على كتل حجرية مستديرة منشؤها ضفاف الفرات. أما حجر السبج ذو الأصول التركية فقد

وجد بوفرة، واستخدم محلياً وقامت بالبحث عنه ماري كليركوفان. وقد حلل الدكتور ي. برينيكه و ج. كيلير[٢] نموذجين بتفاعل النترجة في معهد ماكس بلانك في مدينة هيديلبيرغ. وحلل ب. مارتينيتو[٣] بواسطة ICP/AES-MS العينات الخمس الأخرى. أما مصدر عينات السبج فهو وسط الأناضول، من الكتلة في Gollü Dag ستة عينات من منجم Kômürcü وواحدة من منجم Kayrili.

الصناعة الحجرية

إن وفرة الأدوات الحجرية وتنوعها من (مخلفات النحت، أدوات مصنعة داخل وخارج الأبنية السكنية، مخبأ رؤوس السهام) ستسمح بتحديد الامكانيات التقنية وأنواع النحت التي مارسها سكان هذه المنطقة من الفرات في عصرالنيوليتي ماقبل الفخار أ القديم. وستسمح أيضاً بمقارنة عاداتهم المحلية مع موقع معاصر في جعدة المغارة التي نقب فيها أ. كوكينيو. من الهام دائماً معرفة اتساع مجموعات المواقع أو المناطق التي اتبعت بداخلها نفس التشكيلات التقنية.

حالياً يبدو من المؤكد أن سكان تل الشيخ حسن ورثوا تقنيات طرْق ثنائية القطب وذوات الأشكال الفنية العائدة الى العصر النيوليتي ماقبل الفخار أ لهذه المنطقة نفسها (مريبط، الشيخ حسن)[٤] وخلال العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب القديم، فقد استطاعوا أن يطوروا أسلوب استخدام مبتكر، حيث تستند هذه الطريقة التي تعرفنا عليها عملياً في فترة مريبط ٤ أ، الى طرقات متعاقبة للنواة الأصلية بهدف الحصول على رقائق ذات خواص محددة[٥]. إن غنى موقع الشيخ حسن بعناصر التشذيب سمح بمتابعة أسلوب الطرق. هذا إضافة الى فهم أفضل للعلاقات التقنية والثقافية خلال العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب كله في منطقة الشرق الأوسط. تمتلك الصناعة الحجرية بالإضافة للعناصر التقليدية الخاصة بهذه المراحل مثل (رؤوس السهام) (شكل ٦ رقم ١-٢)، نصال ملمعة، مكاشط، مثاقب (شكل ٦ رقم ٤-٥)، نماذج جديدة من الأدوات: مثل مكاشط ذات ساق معلاقي (شكل ٦ رقم ٧)، صفائح ذات ظفر، مما يساعدنا على تحديد معرفتنا التي ماتزال جزئية عن هذه المرحلة الهامة في الشرق. إن الدراسة الجارية لا تندرج ضمن بحث لإقليم منطقة الفرات الأوسط خلال المرحلة الانتقالية بين عصري النيوليتي ماقبل الفخار أ و ب فحسب، بل تشتمل أيضاً على عملية انتشار العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب الى مختلف أنحاء الشرق الأدنى.

الحيوان والنبات

تكشف دراسة الحيوان غياب التدجين ونشاطات الصيد لأنواع الخيول الصغيرة بأنواعها (الحمار، فرأ التيبت). أما الحيوانات مثل (الغزال، الخيول) فتأتي، كما هو الحال في مريبط من السهب المحيط. أما الحيوانات مثل (الثور، الآيل، القندس) فتأتي من الوادي نفسه. وهنا تتوقف المقارنة. في الواقع تظهردراسة الحيوان في سويات تل الشيخ حسن والتي تمت دراستها في عام ١٩٩٣ تشابهاً لهذه الحيوانات مع تلك التي تم العثور عليها في جعدة المغارة أكثر من تشابهها مع تلك التي في المريبط في بدايات عصرالنيوليتي ماقبل الفخار ب.

دُرست كمية كبيرة من الرواسب بهدف التعرف على عالم الحيوان، أما بقايا النباتات المكربنة فهي مازالت قيد الدراسة في كتاب (ويلكوكس و رواتيل، قيد الطباعة)، والذي كتبه جورج ويلكوكس (حبوب و ف. رواتل، كربونات من الخشب: وهي الأطروحة التي نوقشت في عام ١٩٩٧).

حصيلة و آفاق

عقب هذا الموسم وفي ضوء النتائج الأولى يبدو من الهام متابعة التنقيب في سويات ماقبل التاريخ في تل الشيخ حسن، والتي تبدو حالة حفظها واتساعها وقيمتها التاريخية استثنائية بشكل كبير. ولكن للأسف فإن الارتفاع الشديد للمياه في عام ١٩٩٤ (٥ م) أطاح عملياً بكل الآمال المعقودة لإنقاذ هذا الموقع.

تتأتى القيمة التاريخية الاستثنائية لموقع مريبط من أن الانتقال من العصرالنيوليتي ماقبل الفخار أ الى العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب كان مباشراً. وهذا التتابع لم يتوفر في أي موقع آخر. ومن جهة أخرى،أدت المشاركة العلمية للفريق وخاصة المختصين في التنقيبات (والتحليل في الجرف الأحمر (د. توماس ماكليلان) حتى عام ١٩٩٣ ثم د. ستوردور وبسام جاموس منذ عام ١٩٩٥) وفي جعدة (د. إيريك كوكونيو) وفي حالوله (د. م. موليست)

وكلها مواقع تتوضع في الفرات الأوسط وتشمل في مجملها كل المقطع - العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار أ - العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب - ماقبل حلف، أدت الى رفع مستوى عمل هذه البعثة من مجرد التنقيب المنفرد الى مستوى البحث العلمي الأكثر اتساعاً والأكثر دقة (شكل رقم ٧). إن هدف الباحثين في كل هذه المواقع وبناءً على التعاون الوثيق فيما بينهم، هو دراسة التحولات التقنية والثقافية التي أفضت خلال ٤٠٠٠ سنة الى مجتمعات نيوليتية تمارس الزراعة وتربية الحيوانات وبتقنيات متطورة في مجال الصناعة الحجرية وصناعة الفخار.